2024 نيسان مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية العدد 4
April 2024 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences No. 4
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

تجليات الماضي في أسريات المعتمد بن عبّاد

م.د أحمد تركي حمد
Ahmed.hamaad@tu.edu.iq
جامعة تكريت كلية التربية الأساسية/ الشرقاط/ قسم اللغة العربية

الملخص:

يثير هذا البحث تجليات الماضي للشاعر الملك المعتمد بن عباد الأندلسي، ويرمي إلى رصد أشعاره التي قالها في الأسر، ليستخرج ما كان يتّكئ فيه على الزمن الماضي، أيام عزه ومجده، أيام حكمه شبه الجزيرة الأيبيرية بشكل شبه كلي، اشبيلية، وقرطبة، وبلنسية، ومرسية، أيام السمر والشعر والغناء والجواري، أيام الطبيعة الغنّاء الساحرة والقصور، أيام الحرب والمغامرات والحب. وبعد تقلب الزمان قدر الله بأفول نجمه على يد الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين الذي حمله مكبلا بالحديد والقيد ، وزج به في السجن سجن "أغمات" بالمغرب ، لينقلب عزه ذلّ، وقصوره قيد، وشعره بكاء وحنين وذكريات، وظل يشعر بالذل والانكسار حتى وافته المنية سنة ٤٨٨ ه. من هنا تستثمر هذه الدراسة جزئيّة تجليات تلك الأيام لدى المعتمد بن عباد، ومحاولة الوقوف على وجدانياته الشجيّة في مرحلة الأسر في محورين، الأول : الاتّكاء على الذكريات، والثاني: مقارنة الزمن الماضي بالحاضر، يسبقهما: كلمات مفتاحية، ونبذة مختصرة عن المعتمد بن عباد.

الكلمات المفتاحية: الأسر، الماضي، الحاضر، الذكريات، التجليات، المعتمد بن عباد، الأندلس.

Manifestations of the past in the captivity poems of Al-Mu'tamid bin Abbad

Dr.Ahmed Turki Hamad
Ahmed.hamaad@tu.edu.iq
Tikrit University, College of Basic Education/Sharqat/Department of Arabic Language

Summary: This research raises the manifestations of the past of the poet , the king Al-Mutamid bin Abbad Al-Andalusi, and aims to monitor his poems that he said in captivity, to extract what he relied on in the past time, the days of his glory, the days of his rule of the Iberian Peninsula almost entirely, Seville, Cordoba, Valencia, and Murcia. , days poetry, singing, and maidservants, days of lush, enchanting nature and palaces, days of war, adventure, and love. Time passed and he was defeated by Almoravid prince Youssef bin Tashfin, who carried him shackled with iron and shackles, and threw him into prison, “Aghmat” prison in Morocco. Then his pride was became humiliation, his palaces became shackles, and his poetry was weeping, nostalgia, and memories, and he continued to feel humiliated and broken until he passed away in 488 AH. Hence, this study takes advantage of the partial manifestations of those days in Al-Mu'tamid Ibn Abbad, and attempts to understand his compassionate sentiments during the captivity into : the first: relying on memories, and the second: comparing the past time with the present, preceded by: key words, and a brief overview of Al-Mu'tamid Ibn Abbad.

key words: captivity, past, present, memories, manifestations, Al-Mu'tamid bin Abbad, Al-Andalus

المعتمد بن عباد:

هو أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ولد سنة 432 ه في مدينة (باجة)، نشأ في إشبيلية في أسرة ذات سيادة وحكم وجاه، فوالده عباد الملقب بالمعتضد كان ملكاً على إشبيلية وعندما مات استلم المعتمد الحكم سنة 461 ه وهو في الثلاثين من عمره وكان معروفاً بالشجاعة والفروسية والجود والكرم.(المراكشي،1963، ص79)

وقد كان المعتمد شاعرًا يقدر الشعر حق قدره، ويحب مجالسة الشعراء، وقد تجمعت للمعتمد ((أسباب كثيرة ألهبت عواطفه على اختلاف أنواعها؛ فهو محب شريب، تلعب به عواطف الحب، ثم تلهبها الخمرة، ومن ناحية أخرى، يعتز أحيانًا في ملكه، فتمدحه الشعراء ويلهبون عواطف المجد والفخر، ومن ناحية يفقد ولديه في الحروب، وكانا شابين ماجدين؛ فتثور عنده عاطفة الحزن، وأخيرًا يذهب عنه عزه وملكه، فيذل بعد العزة، ويهون بعد العلو، ويفتقر بعد الغنى، وينظر لحاله من جميع النواحي؛ فيرثي لها، ويبكي بكاء مرًا، كل هذه الأسباب، إذا تجمعت في شاعر أنطقته بخير الأقوال)) (أمين،1958، ج/2 ص171)

وهو ((شاعر الترف والرخاء قبل أسره، وشاعر الألم والذكرى بعده)) (ينظر: فاخوري، 1986، ص 968) وقد كانت موضوعات المعتمد، قبل أسره لا تعدو أن تكون ترفًا أدبيًا مارسه الشاعر، وهواية تلهى بها مع نظرائه من الشعراء الذين قربهم من بلاطه، وأجزل لهم عطائه ولما كان شعر المعتمد صورة لحياته؛ فقد وجدنا هذا الشعر قد اكتظ بذكر ألوان الترف والشهوات، قبل الأسر؛ ومردّ ذلك إلى العيشة الناعمة الهانئة التي كان المعتمد يحياها أيام عزه، فكان" لا يحس بالألم والشقاء، وهو في عز ملكه؛ فجاءت أشعاره كلها في وصف الطبيعة والخمر والملاهي (ينظر: البستاني1988 ،ج/3 ص149)

ومن أبرز مظاهر صدق شعر المعتمد، في أسره، أن أشعاره كانت تخرج طليقة على سجيتها، فوصف المعتمد حالته النفسية كما هي، بدون زيادة أو نقصان؛ فجاءت أشعاره المتفائلة على قدر التفاؤل، كما جاءت أشعاره الحزينة، على قدر الحزن كذلك، وما أكثر دواعي حزن المعتمد !يفقد أبناءه، ثم يفقد ملكه، ثم يفقد حريته، ويفقد كل شيء حتى لا يتبقى له إلا القيد وظلمة السجن، فما عسانا نتوقع من شاعر كهذا أن يقول؟

وإذا كان، من خير، للمعتمد في أسره، فإنما هو بسبب ذيوع صيته في أشعاره الشاكية، وعليه، فلم يكن الأسر كله شرًا، بل كانت النكبات المتتالية، تحمل فيها بعض الخير؛ فإن هذه النكبات" جاءت من حظ أدبه؛ لأنه لولاها، لما أخرج هذه الأشعار الوجدانية، التي تحس أنها فائضة من أعماق النفس، تصور حالة الملك الأسير، وحالة أسرته، أصدق تصوير، بعيدة عن التصنع الذي عهدناه في شعره السابق .(ينظر: البستاني1988 ،ج/3 ص151)

وهكذا، كان صدق العاطفة عند المعتمد في أسره، محط اتفاق الأدباء والنقاد، حتى قيل: إن المعتمد في أسره كان أبدًا صادق الانفعال، صادق التصور، وشعره أبدًا تعبير حي عن واقع حالته .(ينظر : فاخوري، 1986، ص968)

وإذا كان من نتيجة لصدق عاطفة المعتمد، فإنما هي البساطة التي اتصف بها شعره، البساطة في اللفظ، والبساطة في المعنى؛ فاكتفى الشاعر بنقل مشاعره وأحاسيسه كما هي؛ فوجدانية المعتمد كانت وجدانية النفس السهلة اللينة، التي تنصبُّ على واقعها، وواقع أحوالها الحياتية، وتعالج آلامها بالتنهدة الحرى ، والزفرة العميقة، والإرنان الطويل؛ فليس هنالك تعقد ولا تعقيد، وليس هناك نظرات إنسانية بعيدة المرامي، وإنما هنالك إخلاص في العاطفة، وصدق في التجربة، وحكاية حال حافلة بالانكسار النفساني، والذهول الآسف المتأمل .(فاخوري، 1986، ص969).

الاتكاء على الذكريات:

الشعراء حين يغادرون أوطانهم، سواء كانت هذه المغادرة باختيارهم أو قسرًا، فإنهم يشعرون بالحزن والانكسار ((ذلك لأنهم كانوا يغادرون أشياء كثيرة غير هذه الأشياء المادية التي تحيطهم . فقد تكون هذه الأشياء علاقة حب ، أو أصواتًا كان يأنس بها في ضوء القمر ، أو ارتباطًا بنخلة نمت على عينيه ، أو بنجم، كما كان يتألق في السماء كان يتألق في نفسه . المهم أنه كان يغادر هذه الأشياء مهمومًا ومحزونًا ، وكان تحت الضغوط لا يملك إلا الالتفات إليها بشيء من الجلد، ثم بشيء من الحزن حتى تكتمل دائرة الانفصال)) (بدوي، 1986،ص63)

ومن الشعراء الذين قاسوا ألم الغربة وتاقت نفوسهم وأفئدتهم لأوطانهم الشاعر الملك المعتمد بن عباد فله مع موطنه ومملكته "إشبيلية "حكاية حب وحزن ، وغير خاف على دارسي الأدب بعامة ، ودارسي الأدب الأندلسي بخاصة قصة المعتمد مع محبوبته "إشبيلية"، فهو من بيت عز وسلطان ، حكم آباؤه هذه المدينة فولد فيها ، وشب وترعرع بين السيف والقلم(ابن عباد، 1975، ص6)، وبعد وفاة والده المعتضد حكم البلاد وعاش مترفًا منعما إلى أن قدر الله بأفول نجمه على يد الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين الذي حمله مكبلا بالحديد والقيد ، وزج به في السجن سجن "أغمات" بالمغرب ، وظل يشعر بالذل والانكسار حتى وافته المنية سنة ٤٨٨ ه.(ينظر قصته بالتفصيل في المصادر التي ذكرت في ترجمته)

لقد عاش الملك الأسير فترة عصيبة في أخريات حياته ، وتحولت نغمة الفرح عنده إلى نغمة الحزن ، ولاشك أن الأحزان تتضاعف والهموم تتكالب حينما يسلب الوطن من يد حاكمه ، وتؤخذ الأرض من يد سيدها ومالكها عنوة وقهرًا، وهو يقف عاجزًا عن استرداد ملكه لا حول له ولا قوة ، مغلوبًا على أمره، ومن يسمع أشعار المعتمد وهو في براثن ذلك المكان الوئيد ، فإنه سيسمع نغمة حادة موجعة تفيض ألمًا وتسكب حسرة ، ويسمع صوتًا حزينًا مجروحًا يرفض الاغتراب المكاني ، ويرنو للعودة إلى أحضان وطنه، ومن خطاب المعتمد لموجودات الطبيعة، خطابه للقطا، يقول : (ابن عباد،1951، ص110)

بكيتُ إلى سربِ القَطا إذ مَرَرنَ بي سَوارِحَ لا سِجنٌ يَعوقُ وَلا كبلُ

وَلَم تَكُ وَاللَهُ المعيذُ حسادَةً وَلَكِن حَنيناً إنّ شَكلي لَها شَكلُ

يرسم لنا الشاعر هذا المشهد المبني على الذكرى، عندما مرَّ عليه ، وهو في موضع اعتقاله، سربٌ من القطا ((وهي تمرحُ في الجوّ، وتسرحُ في مواقع الّنوّ، فتنكَّد مما هو فيه من الوثاق، وما دون أحبته من الرقباء والإغلاق، وما يقاسيه من كبلِه، ويعانيه من وجده وخبله، وفكر في بناته وافتقارهنّ إلى نعيم عهدنه، وحبورٍ حضرنه وشهدنه)) (قلائد العقيان .ص28) فراس177 ، فعادت به الذكريات، إلى أيام عزه ومجده ، وما حالت به الأحوال، فبدأ يقارن بينه وبين سرب من القطا، وهي إشارة على الحالة المأساوية التي وصل إلها الشاعر، ثم يستعيذ بالله أن يتمنى تفرق القطا، لكنّها لواعج هيّجت ذاكرته، وما وصل إليه من تشتت وذل، يقول: (ابن عباد،1951، ص110-111)

فَاِسرح فَلا شملي صَديعٌ ولا الحَشا وَجيعٌ وَلا عَيناي يُبكيهِما ثَكلُ

هَنيئاً لَها أَن لَم يُفَرِّق جَميعُها ولا ذاقَ مِنها البُعدَ عَن أَهلِها أَهلُ

وَأَن لَم تَبِت مِثلي تَطيرُ قُلوبُها إِذا اهتَزَّ بابُ السجنِ أَو صلصلَ القفلُ

وَما ذاكَ مِمّا يَعتَريني وَإِنَّما وَصَفتُ الَّذي في جِبلَةِ الخَلقِ مِن قَبلُ

وهنا يشير إلى قضية مهمة برمزية خفيّة، وهي مقارنة بين الشريعة الإنسانية وشريعة الغاب، ففي الأولى: شمله صديع، وعيناه باكيتان من الثكل والوجع ، بلا ذنب - كما يدّعي- بينما في الشريعة الثانية:

"الغاب" تعيش الطيور سوارح، لا أحد من جنسها يفرّق جمعها، أو يسلب منها حريتها ، أو يفجعها بقتل أبناءها، كم حصل مع المعتمد!

ويختم نصه بعتب يخالطه فخر، فنفسه تسعى إلى الموت، بينما سواه يحب العيش تحي أية ظروف حت وإن كان مقيدا في أسر، فهذا من باب الفخر وعلو الهمة، أما من باب الحزن أو العتاب، فإن نفسه تسعى إلى الموت، لأنّ أهله قد تشتتوا، فمنهم قُتل، ومنهم سُجن أو تشرد. (ابن عباد، 1951، ص111)

لِنَفسي إلى لُقيا الحِمامِ تَشوُّفٌ سِوايَ يُحِبُّ العَيشَ في ساقِهِ كَبِلُ

أَلا عَصَمَ اللهُ القَطا في فِراخِها فَإِنَّ فِراخي خانَها الماءُ وَالظِلُّ

لقد كانت الذكريات نارا تسعر في أحشاءه شوقا إلى أهله ، و من شدة وطأة الشوق والحنين على نفسه و تعلقه بهم، جعله يعيش معهم باستمرار عن طريق التذكر و جعله يراهم في كل شيء أمامه، فحتى سرب القطا الذي مر عليه في موضع اعتقاله ذكره بأهله.

وفي قصيدة ثانية، قالها عندما ((رأى قمرية نائحة بشجنها، نائحة بفننها على سكنها، وأمامها وكرٌ فيه طائرانِ يرددان نغمًا، ويغرّدان ترحة وترنمًا)) (ابن خاقان، 1989 ص21)، يقول: (ابن عباد، 1951، ص68)

بكت أن رأت إلفينِ ضمهما وكرُ مساءً، وقد أخنى على إلفها الدهرُ

بكت لم ترِق دمعًا، وأسبلت عَبْرَة يقصِّرُ، عنها، القَطْرُ مهما همى القطرُ

وناحت، فباحت واستراحت بسرِّها وما نطقت حرفًا يبوحُ به سرُّ

فتعود به الذكرى إلى أيام عزّه ومجده، فقد كان صاحب دولة وصولة، وكان أميرا مطاعا، وأديبا شجاعا مهابا، ثم دالت دولته، فذهب كل ذلك بلمح البصر، وتقف هذه الحمامة وتنوح؟ وليس كذلك ، فمن غير العادل، أن تبكي هذه القمرية على إلفها مع أن أمامها طائرين، وهي مستقرة في عشها، بينما الشاعر لا يبكي مع أن مصابه يضعُفُ مصابها أضعافًا كثيرة .ويأخذ الشاعر في تفصيل مصابه على نحو يشجعه على الحزن، ومداومة البكاء، فقول: (ابن عباد، 1951، ص68)

فماليَ لا أبكي أم القلبُ صخرّة وكم صخرةٍ في الأرض يجري بها نهرُ

بكت واحدًا لم يُشجِها غيرُ فقده وأبكي لأُلافٍ، عديدهم كثرُ

بنيَّ صغيرٌ، أو خليلٌ مُوافق يمزق ذا قفرٌ ويُغرِق ذا بحرُ

ونجمانِ زينٌ للزمانِ احتواهما بقرطبة النكداءِ أو رُندَة القبرُ

أتبكي هي، وأبخل أنا؟ بل أنا من له الحق في البكاء طوال الدهر! فإن قلبي ليس بصخرة، وحتى الصخرة قد يجر بها الماء، وهنا يضمن قوله تعالى {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً} [البقرة:74]، فإن كان مصابها بواحد فقدته، فإنني قد فقد الآلف، فمن الذي يبكي أنا أم هي؟.

وذكريات المعتمد على ملكه المفقود كثيرة ، فالأندلس تشغل فؤاده وتغمره ، ولا تكاد صورتها تفارقه ، فنسمعه وهو يحلق في فضائها الرحيب، ويسبح في ذكرياته، ويتمنى بكل لوعة لو استطاع أن يبيت ليلة واحدة في قصره، أمامه وخلفه روضة وغدير : (ابن عباد، 1951، ص98).

فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة أمامي وخلْفي روضةُ وغدير

العدد 4 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية نيسان 2024
No. 4 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences April 2024
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

بمنبتة الزيتون مورَثة العلى يغني حمام أو ترِنُّ طيور

بزاهرها السامي الذُّرى جاده الحيا تشير الّثريا نحونا ونشير

ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده غيورين والصب المُحب غَيور

تراه عسيرًا أو يسيرًا منأله ألا كُل ما شاءَ الإَله يسير

قضى الله في حمص الحمام وبعثرت هنالك منا للنشور قبور

لقد انطلق الشاعر وهو في ذلك المكان الوئيد نحو الذكريات والأحلام وما ذلك إلا رغبة انتابته في التحرر من هذا المكان المنغلق والهروب منه ولو بالأحلام والحنين، ((وهذه عادة الشعراء حينما يصطدمون بالواقع المرير، ويدركون استحالة تحقيق ما يشتهون ؛ فإنهم يلجأون إلى طريق الأمنيات والأحلام ، والشواهد على ذلك في أدبنا العربي كثيرة ومتنوعة)) .(العميري، 2006 ص226)

إن نفسه تتمنى ، إلى العودة إلى المكان الأول الخاص بها حيث الغدير والروضة ، وأشجار الزيتون، رمز المجد العائلي الأثيل، حيث غناء الحمام وترنيمة الطيور الصادحة ، وهو في " قصره الزاهر" السامي بين أهله وأصحابه ، فيلحظه قصراه "الزاهي، وسعد السعود" سعيدًا فتدب الغيرة فيهما ؛ كونهما محبان له أيضًا "والصب المحب غيور" ، لقد استطاع المعتمد أن يحتوي الأمكنة بحب متبادل عن طريق مخيلته الشعرية ، غير أن هذه الأمنيات يتأرجح تحقيقها في نظره ما بين الصعوبة واليسر مع إيمانه بأن الله على كل شيء قادر **"ألا كل ما شاء الإله يسير"** .

وفي نص آخر يلوذ الشاعر السجين من هلع وضيق المكان المنغلق، بنشدان الذاكرة مرة أخرى ، فيحتدم الزمن دون إطار توقيتي منسق، فيسافر إلى الماضي ، ليملأ الفراغ المنبعث من عالم السجن، مشكلا بذلك حالة من السيلان في الأحداث المسترجعة، فتنعتق روحه من زمنكانية السجن بتذكر ما كان عليه من قوة وسعادة في الماضي القريب، مثل قوله: (ابن عباد، 1951، ص20)

أَلَا حَـيِّ أَوْطَـانِـي بِـشِـلْـبَ أَبَـا بَـكْـرٍ وَسَـلْـهُـنَّ هَلْ عَـهْدُ الْوِصَالِ كَمَا أَدْرِي

وَسَلِّمْ عَلَى قَصْرِ الشَّرَاجِيبِ عَنْ فَتًى لَـهُ أَبَـدًا شَـوْقٌ إِلَـى ذَلِـكَ الْـقَـصْـرِ

ومن الملاحظ أن نصوص الشاعر غالبا ما تكون مبنية على ذكر المكان، ولعلّ ذلك طبيعي، فالشاعر كان يسكن مملكة، ثم أصبح يسكن سجنا! فيبدأ بتذكر تلك المملكة بشك عام(**أَلَا حَـيِّ أَوْطَـانِـي**)، ومن ثم يبدأ بالتفاصيل، فيحيي(**قَصْرِ الشَّرَاجِيبِ**) لما لهاذا القصر خصوصية في ذاكرته، إذ خصّه بالشوق دون باقي المملكة، فاسبغ عليه أوصاف إنسانية، على الرغم من جموده، تعبيرا عن حبه وشوقه له، ثم يترك الانكسار للحظة ذاهبا باتجاه الفخر: (ابن عباد، 1951، ص20)

مَـنَـازِلُ آسَـادٍ وَبِـيـضٍ نَـوَاعِـمٍ فَـنَـاهِـيكَ مِنْ غِيلٍ وَنَاهِيكَ مِنْ خِدْرِ

وَكَـمْ لَـيْـلَـةٍ قَدْ بِتُّ أَنْـعَمُ جُنْـحَـهَا بِـمُـخْـصِـبَـةِ الْأَرْدَافِ مُـجْدِبَةِ الْخَصْرِ

وَبِيضٍ وَسُمْرٍ فَـاعِلَاتٍ بِمُـهْـجَـتِي فِـعَـالَ الـصِّفَاحِ الْبِيضِ وَالْأَسَلِ السُّمْرِ

لقد تمازجت لغة الذكريات عند الشاعر بالفخر، ولا غرابة في ذلك فالشاعر من صفوة القوم ومنازله "منازل آساد "غير أن هذه المنازل انهارت بانهيار آخر ملوكها ، وإيداعه غياهب السجون ، ولا شك أن السجن قد كان له الأثر الأكبر في نفس الشاعر، وفي معجمه الشعري ، فالنص مبنيّ على الذكرى ، خطوط يسمها الشاعر في لوحة فنية محزنة، كأن الذكريات هذه يعيشها المعتمد في اللحظة الراهنة،مع انها في الحقيقة قد مضت وتولت منذ أزمان، أما الأحداث التي سردها لنا الشاعر وقد مرت عليه،

وأستمتع بها في ذاكرته ، فلا يمكن للزمان أن يمحوها ،كما هذه الذكريات عن أفصحت مدى لهو الشاعر، وميله الجارف للملذات والنساء و الخمر في ظل مملكة وطن عاش فيه مترفًا ردحا من الزمن وقوله: **(كم ليلة قد بت أنعم جنحها)** يوحي بكثرة لياليه العابثة وساعاته اللاهية ، فكم هنا خبرية دالة على الكثرة.

وذكر الشاعر للمنازل يعطينا إشارة إلى أهميتها عنده ، ولا غرو؛ فهي موطن عزه ، وبطولة أجداده ، وارتباط المنازل ببيض النواعم يعطي إشارة ثانية إلى مدى الرفاهية ، واللهو اللذين كان يعيشهما الشاعر مع من سبقه من آبائه ، فالغيل موضع الأسود، والخدر موضع النساء، ثم ينتقل الشاعر من ذكريات المكان إلى الزمكان: (ابن عباد، 1951، ص20)

وَلَـيْـلٍ بِسُدِّ النَّـهْرِ لَـهْوًا قَطَعْتُهُ بِذَاتِ سِوَارٍ مِثْلِ مُنْعَطَفِ النَّهْرِ

نَضَتْ بُرْدَهَا عَنْ غُصْنِ بَانٍ مُنَعَّمٍ نَضِيرٍ كَمَا انْشَقَّ الْكِمَامُ عَنِ الزَّهْرِ

وَبَاتَتْ تُسَقِّينِي الْمُدَامَ بِلَحْظِهَا فَمِنْ كَأْسِهَا حِينًا وَحِينًا مِنَ الثَّغْرِ

وَتُطْرِبُنِي أَوْتَارُهَا وَكَأَنَّنِي سَمِعْتُ بِأَوْتَارِ الطُّلَى نَغَمَ الْبُتْرِ

ثم تختزل ذاكرته من الزمان ليلية مميزة **(وَليل بسد النهر لهوًا قطعته)** يتبين لنا خصوصية هذه الليلة وذلك المكان (سد النهر) عند الشاعر، فالشاعر لم يذكر لنا الزمن (ليلة) إلا مفردًا ولم يقل ليالي دلالة على أن الشاعر قد مر بليلة اختزنتها ذاكرته لما تحمله من معاني في نفسه جعلته يشير إليها في نصه.

وقد لعب الجناس دورا بارزا في البيت الثالث بين (بيض، و البيض) ، و(سمر، والسمر)، وكان يريد بالبيض والسمر النساء اللواتي من حوله ، وما كان من وقعهن على فؤاده، إذ أحدثن في نفس الشاعر من تأثير، وقوة كتأثير ، السيوف، والرماح ، وبذلك يكون الشاعر الملك قد عقد جناسًا بين جده ولهوه.

وهكذا نلحظ إن الاتكاء على الذكريات عند المعتمد طريقة يستمتع فيها بالتغني بالأيام الجميلة الماضية التي عاشها في ظل مكانه الأليف، المحبب إلى نفسه ، كما ونجد هذا الشاعر ، وهو يرحب فيها بالألم ، والحسرة على تلك الأيام، وتلك الذكريات بلغة حزينة مؤلمة.

هذا ونجد أن الشاعر عندما استعمل تقنية الاتكاء على الذكريات ، فإنه وجد راحة ، ومتنفسا في البوح عن مشاعره وما يختلج في نفسه؛ لذا نجد أن لغة الشاعر اتسمت بالشفافية مما يكشف عن الروح الحالمة، والتواقة لإعادة الماضي البعيد في زوايا مكان يشكل لهه جزءًا من أحلامه، وطفولته وشبابه.

<u>مقارنة الماضي بالحاضر:</u>

شَغَلَ الزمان الأنسان والفكر البشري منذ وقت مبكر، وقد تباينت الأفكار والآراء في تحديد الزمن وتعريفه، فهو عند البعض مقدار حركة الفلك الأعظم؛ وذلك لكونه متفاوتاً زيادةً ونقصاً، بينما نظرَ إليه البعض على أنّه وسط لا نهائي غير محدود، فهو شبيه بالمكان، تجري فيه الأحداث كما يكون مدركا بالعقل(ينظر : صليبا، 1973 ص 636 -637) ، أمّا إفلاطون فيرى أنّ الزمان يعني الوجود في الحركة، أو هو مدة المتحركات، ولا وجود له بدون العالم المتحرك(ينظر: الالوسي، 2005 ص153)، وقد جاء هذا الاهتمام بالزمان؛ لأن ((الانسان كلما تقدّم به السن زادت معرفته بموته هو)) (ميرهوف، د.ت، ص 57)، أمّا ارسطو فيربط بين الزمان والحركة، فوجود الزمان هو الذي يبين تقسيم الحركة على متقدم ومتأخر(ينظر: بدوي، 1980 ص219).

وكذلك قسم الزمن ((على اعتبار قبل وبعد الى الماضي والحاضر والمستقبل)) (حسن، 1994ص10) ، وعلى الرغم من هذا فان الزمن في اعماق الفرد لا يفارقه لان الماضي والحاضر والمستقبل يربط بينهما رابط وشيج سواء أكان مصدره الخبرة أم اللاوعي، فهذا الارتباط موجود في أعماق النفس البشرية

بصورة إرادية أو غير إرادية فالماضي المترسب في اللاوعي غالبا ما يكون حاضرا، وذلك باسترجاعه عند حدوث ما يستدعي ذلك الحضور سواء لمواجهة الحاضر أم لاستشراف المستقبل(ينظر: مطلك، 2005 ص8).

وللزمن عند الشاعر الأندلسي صورة مؤثرة فهو يذكره بماضيه السعيد، الذي قضاه، وبحاضره التعيس الذي يحاول الهروب منه باللجوء الى الماضي، ومن ثم من خلال رؤيته للحاضر نجده يخاف المستقبل(ينظر: السراج، وإبراهيم، ع58، 2011ص20)، وهذا مرده إلى الشعور بالقلق المستمر الذي صاحب الشاعر الأندلسي منذ بداية تكوينه بسبب الظروف القاهرة التي عصفت بالأندلس والتي سبقت الإشارة إليها .

والمعتمد ممن عاشوا هذا الشعور المرّ بكل تفاصيله؛ إذ أنّه رسم للقارئ مشاهداً حيةً تنبض بالأسى، وهو يسعى جاهدا لعلاجها، فقد كابدت ذاتُه الأمرّين في تلك الفترة، ممّا جعل الشاعر يعيش تلك اللحظات المؤلمة، يصارع فيها الأمل والألم ، الأمر الذي جعل من الماضي حلم خاطف يتراءى أمامه ليل نهار يعيش على أمل استعادته ليخلصه من الواقع الذي يجثم على صدره، في الوقت الذي مثل المستقبل انطفاء الحياة وتوديعها الوداع الاخير، وهذا ما سنحاول الكشف عنه من خلال رؤيته للزمن المتمثلة بالمقابلة بين الماضي والحاضر، والخوف الشديد من المستقبل.

ومن تجليات الماضي لديه، ومقارنته بالحاضر هذا النص الذي يفيض وجدانا وعاطفة، عندما رأى بناته في حالة مأساوية، ليعقد لنا هذه المقارنة: (ابن عباد، 1951، ص100)

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فجاءك العيد في أغمات مأسورا

يبدأ الشاعر قصيدته بالمقابلة بين زمنين متناقضين: (ماضيه السعيد، وحاضره التعيس)، وقد اختار موقف العيد لما له من وقع على نفسه من جهة، وعلى نفس الملتقي الذي لا يشكل عنده سوى الفرحة والسرور من جهة أخرى، والشاعر يحقن في مقدمة القصيدة كم هائل من الألم والحزن، لذا كان استعماله لأصوات المد يناسب الألم والحزن الذي مر به؛ ففي الكلمة "فيما" حرفا مد، وفي "مضى" حرف مد، وفي " الأعياد" حرف مد، وفي "مسرورا " حرفا مدّ، وفي "فساءك" حرف مدّ، وفي "العيد" حرف مدّ، وفي "في أغمات" حرفا مدّ، وفي "مأسورا " حرفا مدّ، ليشرك المتلقي بهذه الآهات التي يعانيها، ثم يسترسل بوصف الحالة التي وصلنّ إليها بعد أن كنّ عزيزات مخدومات، يقول: (ابن عباد، 1951، ص100)

برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

ضمّن الشاعر بذكاء صورة لبناته، وما وقعنّ به من ذلٍّ على أيدي حلفاء الأمس، فشملت الصورة من أعلى الرأس "أبصارهن" إلى الأقدام حافية؛ ليكون لها الأثر الأكبر فيما أراد من تصوير لواقع أليم، ولم يعد لعيد الفطر ذلك الوقع المعهود في قصوره، بل أصبح تفطير للأكباد: (ابن عباد، 1951، ص100)

لا خد إلا ويشكو الجدب ظاهره وليس إلا مع الأنفاس ممطورا

أفطرت في العيد لا عادت إساءته فكان فطرك للأكباد تفطيرا

ولم يكن الأثر النفسي عاماً، بل جعله في أظهر حالات الخصوصية عندما جاء بـ "الأنفاس والأكباد " التي لم يرد بها سوى ما ظهر في السياق، أي وقع تجربته في الأسر على زوجته وبناته، ولعلّ نهاية القصيدة تكشف لنا قصر الحياة وأنها "أحلام، لا طائل من الركض خلفها: (ابن عباد، 1951، ص100)

من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

ويتجلّى له الماضي ليقابله بالحاضر مرة أخرى عندما يثقل علية حديد القيد، ليصف لنا حاله بحسرة وألم وهو في الأسر مقيدا، يقول: (ابن عباد، 1951، ص 94)

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد و ثقل القيود

و كان حديدي سنانا ذليقا و عضبا رقيقا صقيل الحديد

فقد صار ذاك و ذا أدهما يعض بساقي عض الأسود

لقد انقلبت حياته رأسا على عقب ؛ فقد أصبح الأمير والشاعر يوضع في قيود ثقيلة تفترس ساقيه بأنياب حادة تزيده ألما على ألم، وتزداد المعاناة وجعا حين يتذكر الحديد كيف كان في يده سيفا حادا، و كان به فارسا مغوارا في المعركة، واليوم صار عبدا لهذا الحديد وهو يلتوي عليه بأوجاع ثقيلة.

ومن طبيعة النفوس المعذبة أنها في غمار حياتها العابسة في السجن و واقعه المتهجم" تجنح لاستعادة رصيدها السالف، و عواطفها الغابرة هربا مما هي عليه من أسى و كآبة، و عند ذلك يطيب لها العيش في رحاب الماضي البهيج، و تستمرئ التهويم في عالم الذكرى (ينظر: الحاوي،1980، ج4، ص68) إلا أن المعتمد يسترجع في غربته ذكريات الماضي؛ لأنها تؤكد له ضياع ملكه إلى الأبد، وزوال عز أيامه ومجده، ولم يجد المواساة المؤازرة في بلائه، إلا معالم قصوره التي أجهشت بكاء على فراقه، وكأنها تعاني هي الأخرى من الغربة بعد رحيله عنها، فأظلم جو القصر من أقماره، وخلا من حراسه وفي ذلك يقول: (ابن عباد،1951، ص95)

بكى المبارك في إثر ابن عباد بكى على أثر غزلان و آساد

بكت ثرياه لا غمت كوابها بمثل نوء الثريا الرائح الغادي

بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته و النهر و التاج كل ذله بادي

ماء السماء على أبناءه درر يا لجة البحر دومي ذات أزباد

ومن الملاحظ بأن الشاعر دائما ما يعتمد تقنية التشخيص عندما يتجّلى له الماضي، فقد جعل قصوره تبكي وهي صفة إنسانية، ولكن الحالة النفسية التي مر بها جعلته يتعامل مع الجمادات وكأنها بشر كامل الأهلية، تبكي، وتحزن، وتشتاق، وتحن لأصحابها، هنا عندما تجلّى له الماضي، تذكّر أيام مجده وعزه، فشخص قصوره وجعلها تفتقد الغزلان والآساد، وتبكي عليهم، وهذه أقصى درجات الفخر؛ فالقصور تبكي؛ لأنها كانت عرين أسود، وفي الجهة المقابلة مليئة بالغزلان، بما يعني أن آل عباد أسود تبكي عليهم القصور، والغزلان أي (النساء)، وتفاصيل القصور، والأنهار ، والطبيعة، وأدوات الملك كلها حزين على الشاعر وذويه؛ لأنها لا تستأنس بغيرهم، فهم الوحيدون الذي يليق بهم الملك دون غيرهم.

وفي مقابلة أخرى بين الماضي الأثير، والحاضر المؤلم، يلقي الشاعر بشكواه وعتبه على الزمن قائلا: (ابن عباد، 1951، ص108)

قبح الدهر فماذا صنعا كلما أعطى نفيسا نزعا

قد هوى ظلما بمن عادته أن ينادي كل من يهوى لعا!

من إذا الغيث همى منهمرا أخجلت كفه فانقطع

من غمام الجود من راحته عصفت ريح به فانتشعا

قل لمن يطمع في نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا

راح لا يملك إلا دعوة جبر الله العفاة الضيعا

لقد اتسمت شكوى المعتمد بحرقة ومرارة وما عمقها الشعور بقسوة الزمن ، إذ أصبح ماثلا أمام شاعرنا يملأ وجوده في الأسر بحتمية الموت المتوقع، إذا لم يعف عنه الأمير، ولأنه مقيد لا يمكنه أن يثور ويسخط على قيدوا حريته؛ فإنه يسقط بلومه وسخطه على الزمن متضجرا من تصاريفه.

ومقارنات الزمن عند المعتمد لا تنتهي؛ لذا نجده يشكو سوء حاله مقارنة بما كان عليه في الماضي إذ قال: (ابن عباد، 1951، ص 94)

كنت حلف الندى و رب السماح وحبيب النفوس والأرواح

و أنا اليوم رهن أسر و فقر مستباح الحمى مهيض الجناح

لا أجيب الصريخ إن فزع الناس ولا المعتفين يوم السماح

عاد بشري الذي عهدت عبوسا شغلتني الأشجان عن أفراحي

فقد كان في الماضي أكرم الناس، وأنداهم يدا، وفي الوقت ذاته كان يتمتع بقبول، ومحببا لدى الناس؛ لجمال روحه، وفي لحظة تحول إلى فقير، أسير، مستباح الحمى، لا يجيب الصريخ إذا استنجد به، ولا يعطي المتعفف إذا سأله، فصار وجهه البشوش عبوّسا، وشغلته الأشجان عن الأفراح.

أيّة حالة وصل إليها المعتمد؟ أيّ ذلّ بعد العز؟ وأيّ حزن بعد الفرح ؟إذن لا غرابة من أن يصرح لنفسه بالبكاء ما تطاول به العمر: (ابن عباد،1951 ص 105)

يقولن صبرا لا سبيل إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري

لقد انكسرت ذاته الشاعر، واستبيحت قيمها، واستفرغت إنسانيتها، و لم يبق له غير الذل والفقر، يلفانه بوشائح الأسى والحزن، بعد العز والمجد، وعن ذلك عبر أيضا بقوله : (ابن عباد، 1951، ص 92)

ذل و فقر أزالا عزة و غنى * نعمى الليالي من البلوى على كثب**

إنها غربة احتوت حياته في حلقة مفرغة لا يعرف بدايتها من نهايتها ، إنه و هو في السجن لا يرى سوى الذل والفقر اللذان أزالا، ولا يسمع فيها إلا صدى القيود و السلاسل التي تكبله.

ويعود ثانية ليشجب الحاضر بكل تفاصيله المؤلمة، ويسافر بخياله إلى الماضي الذي اتخذ منه ملاذ آمنا لروحه المعذبة، حامدا الله تعالى على الذي جرى له، يقول: (ابن عباد،1951، ص111)

لك الحمد من بعد السيوف كبول بساقي منها في السجون حجول

و كنا إذا حانت لنحر فريضة ونادت بأوقات الصلاة طبول

شهدنا فكبرنا فظلت سيوفنا تصلي بهامات العدا فتطيل

سجون على إثر الركوع متابع هناك بأرواح الكماة تسيل

لم يعد يشعر بالحاضر حتى غاب بخياله في الماضي حاملا معه الحياة ؛ ذلك لكون الحاضر لحظة من لحظات الزمن لا تحقق ديمومة وجوده فيه إلا بالتداخل ((بحيث لا يمكن أن تكون مكتفية بذاتها، إلا

تداخلت مع لحظة المستقبل ولحظة الماضي، و هذا الالتحام هو الذي يشكل مجرى ديمومة الزمن))(عزام، 1959 ، ص58) .

أن الزمن الحاضر قد جسد عند الشاعر الانطفاء والذبول ، وفجر إحساسا قويا بالقلق والأسى، خاصة حين يستحيل وجوده في الحاضر موتا بطيئا تعكسه حالة ضعفه و ذله بعد قوة وعز.

((لقد حاول أن يتناسى ذلك السجن الذي ينبهه إلى حقيقة وجودية في الآن الحاضر إذ لولا الآن لما كان ثمة حضور))(بدوي، 1955 ، ص71) وإذا لم يكن حضور فلا وجود .

لذا نشعر بأن المعتمد حاول أن يجعل من – الآن – لحظة زمنية ممتلئة بالذاكرة و الخيال و الحلم، تحقق له الولادة الثانية الجديدة في – الآن – الذي فيه حضور مستمر و بما أن الشعور – بالآن – لا يتم حقا إلا في حالة القلق الهائل، فإن الشاعر يعيش مثل هذا القلق في السجن بعمق وكلما بلغ القلق أوجه، شعر بأن الزمان قد وقف نهائيا.(ينظر: بدوي، 1955 ، ص73)

لكن الشاعر يجد أخيرا الحل المناسب للمصيبة التي وقع فيها؛ إذ أنه لجأ إلى الرحمن و وجد في الإيمان به كل سلوان، و يتعزى و يتصبر ويعلل النفس بالقضاء و القدر، و يتسلى بصروف الدهر و خطوبه و عبره، يقول: (ابن عباد،1951، ص114-115)

اقنع بحظك في دنياك ما كانا وعز نفسك إن فارقت أوطانا

في الله من كل مفقود مضى عوض فأشعر النفس سلوانا و إيمانا

أ كلما سنحت ذكرى طربت لها مجت دموعك في خديك طوفانا

أما سمعت بسلطان شبيهك قد بزته سود خطوب الدهر سلطانا

وطن على الكره و ارقب إثره فرجا واستغفر الله تغنم منه غفرانا

ولكنّه يبكي في كل فرصه، يبكي حياته بكل ما فيها من شعر ومجالس أدب ، ومن لهو وطرب ، وكذا حياته بما فيها من حب وصداقات ومغامرات ، فكيف لا يبكي ؟ وكيف لا يشتاق ويحن ؟ لقد مني الشاعر بطامة كبرى حين فقد وطنه ((وطبيعي لشاعر مثله أن يبكي إمارته ودولته وما كان فيه من عز وسلطان وأبهة وحياة مرفهة ، واسمه ملء الآذان في الأندلس ، والشعراء يفدون عليه ، ويروحون بفرائد من أمداحهم ، وهو يسبغ عليهم عطايا كأنها سحب غدقة منهلة وكل ذلك محي وزال ، وكأنه كان حلمًا واستيقظ منه على اليأس والبؤس)) (ضيف، دت، ص ٣٤٠)
إن فرار الشاعر بروحه و وجدانه من حاضره الذي يمثله واقع السجن، إلى عالم حلم به، وماض طلب فيه العزاء حيث النشوة والغبطة حقق له نوعا من الانعتاق من القلق والألم والشعور بالأمان ومن ثم فإن رغبته في الهروب من عالم السجن هي التي تدفعه إلى ممارسة الحلم وتعاطيه احتيالا على الواقع المرير المعيش في السجن، وما ممارسته لهذا الحلم اليقظ إلا تجربة نفسية تدل على إحساسه المشبوب بالنعيم المفقود في السجن، وهنا يعيش الشاعر وحدة متوترة، يصل الشعور بذاتيته أوجه، و بالتالي الشعور بالوجود الذي يكون فيه التناقض الطابع الأصيل للوجودية .و شعور الشاعر السجين هنا هو" شعور تجربة حية، جامعة بين الحال النائم و السرور في توتر مستمر. (ينظر: بدوي، 1955 ، ص162).

الخاتمة:

اعتمد الشاعر بشكل كبير على استرجاع الذكريات وتتبع خطواتها، وقد تعايش معها وكأنها وليدة اللحظة ، كما نجد رنة الأسى ونغمة الحزن على مضي تلك الذكريات المرتبطة بأمكنته المفقودة قد اثخن جراح الشاعر، وتسبب بعد ذلك بنهايته.

استعمال الشاعر لتقنية الاتكاء على الماضي، ما هي الا محاولة يائسة للهروب من واقع الحاضر المؤلم.

كثيرا ما تختلط مشاعر المعتمد ما بين الفخر والبكاء، فنلاحظه يبكي ثم يستدرك بأن البكاء لا يليق بفارس وملك، ثم يعود للبكاء مرة أخرى؛ لأن فداحة الحدث الذي مر به يتغلب على كبرياءه ، وبقي على تلك الحالة إلى وافته المنية قهرا للذي حدث له.

النصوص التي مرت علينا - بمرحلة الأسر- امتازت بصدق عاطفة منقطعة النظير، خلافا لشعره الذي قاله في مرحلة الملك الذي لا يتعدى الترف الأدبي الخالي من حرارة العاطفة الصادق التي انتابته في مرحلة السجن.

كما ونجد حضورًا قويًا للزمن ودلالته من مثل : الليالي ، والزمان ، والأيام ، والدهر ،ولهذا الحضور أثره في تدعيم عملية التذكر واستثارتها.

ثبت المصادر والمراجع:

1. ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي ، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه: يوسف خريوش،، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الاردن – الزرقاء، (ط1)، 1989.
2. ابن عباد، ديوان المعتمد ملك إشبيلية ، جمع وتحقيق د . رضا الحبيب السويس الدار التونسية للنشر ، (د ط) 1975.
3. ابن عباد، المعتمد :ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية .تحقيق أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية بالقاهرة (د ط)، 1951.
4. أبو موسى، محمد محمد ، دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، مكتبة وهبة ، مصر ،(ط2) ،1978 .
5. الالوسي، حسام، الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (ط1)، 2005.
6. أمين، أحمد، ظهر الإسلام، المطبعة المصرية اللبنانية، (د ط)،1958 .
7. بدوي، عبد الرحمن، (أرسطو)، دار القلم، بيروت، (ط2)، 1980.
8. بدوي، عبد الرحمن، الزمان والوجود، مصر : مكتبة النهضة المصرية، (ط2)، 1955 .
9. بدوي، عبده، قضايا حول الشعر، قضية الغربة المكانية في الشعر العربي، ذات السلاسل ، الكويت(د ط) ،1986 .
10. البستاني :أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، بيروت، دار الجيل، (د ط)، 1988.
11. الحاوي، إليا، في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني (د ط)، 1980 .
12. حسن، لطيف محمد، الفضاء الشعري عند السياب ، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب، جامعة الموصل،1994.
13. السراج ، رافعة سعيد ، وإبراهيم ،سكرة علي، شكوى الغربة الزمكانية في شعر عذري بن أمية، مجلة آداب الرافدين، ع /58 ، 2011م.
14. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (ط1)، 1973.
15. ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات/الأندلس ، القاهرة : دار المعارف ، (ط2)،(2020).
16. عزام، عبد الوهاب، المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ، القاهرة : دار المعارف، (د ط)، 1959.
17. العميري، أمل بنت محسن سالم رشيد ، المكان في الشعر الاندلسي ، اطروحة دكتوراه ، جامعة أم القرى – كلية اللغة العربية قسم الدراسات العليا - العربية، السعودية ،2006.
18. فاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، بيروت، دار الجيل، (ط 1)، 1986.
19. قضايا حول الشعر ، قضية الغربة المكانية في الشعر العربي ، دكتور / عبده بدوي، ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٨٦،

20. المراكشي، أبو محمد عبدالواحد بن التجيبي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، (د ط) ،1963.
21. مطلك ، حسن صالح، موقف الشعراء في عصر ما قبل الاسلام تجاه الزمن بين التحدي والاستسلام، اطروحة دكتوراه، كلية التربية ، جامعة الموصل ، 2005.
22. ميرهوف، هانز، الزمن في الأدب، ترجمة أسعد مرزوق، مراجعة العوضي الوكيل، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، (د،ط)، (د.ت).